خطوات على الشلال

سلطان الزمان

بقلم: محمود تيمور

السماء صحو ، والجو رائق ، والرياح تؤثر الهوادة والليل ، والنيل تتلألأ مويجاته تحت أضواء الشمس المتألقة .

هذا يوم فريد ، جدير أن نقضيه في ضيافة « سلطان الزمان » .

ولعلك لم تسمع بهذا اللقب بعد ، ولكنه لقب لرجل معروف الاسم ، طائر الصيت ... « أعاجان » زعيم الاسماعيلية الأوحد ، ومرقده هنالك على ضفة النيل اليمنى المقابلة لمدينة « أسوان » . ضريح فخم على رأس الجبل ، اختار موضعه بنفسه في حياته ، ورضي به مثوى لجثمانه بعد رحيله عن الدنيا .

هبطنا الى المرسى ، ناخذ على الماء طريقنا الى الضريح ، فاستقبلنا زورق شراعي أنيق يحمل اسم « غزال » فامتطينا ظهره على بركة الله .

وكان ربان « الغزال » غلاما أسوانيا أشرف على الثمانية عشرة ، حسن الطلعة يدير على رأسه عمامة خفيفة ، ويحزم خصره بنطاق ، متخذا في شارته ولهجته سمت النواتي الأصلاء .

والنهر في هذه البقعة متعة ماثلة ، حافلة بطرائف المشاهد : خلجان ومنعرجات ، وجزر خضر كأنها نفحات من الجنة ، وصخور سود كأنها زبانية من الجحيم .

وتراءت لنا عن اليمين ، على مطرح النظر ، رابية يشرف منها ضريح متواضع هو ضريح الشيخ « علي ابن الهوى » ، وعلى الطرف الآخر من اليسار يلوح ضريح لاقل تواضعا عن سموه ، هو قبر « الشيخ عثمان » ، وبين هذين يتربع في عظمة وزهو ضريح « سلطان الزمان » ... ثلاثة من أهل الله اتخذوا من رأس الجبل مقاما أبديا ، ونعم الاختيار ، فمن مثل هذا الهدوء الشامل ، والجو الساجي يطيب للأرواح أن تتناجى .

ومضى الربان الغلام يثرثر ، فقال :

ان « أعاجان » قد اختار هذا المكان مقاما له أبان حياته ، لأن داء المفاصل أعياه ، ولم يكن يجد شفاءه الا في تلك البقعة ، وكثيرا ما كان يدفن جسده في أعوار الرمال ساعات وساعات ، فتزول آلامه ...

وقلت لنفسي :

لعل الرجل آثر أن يكون مثواه بعد مماته ، فى المكان الذى اتاح له الراحة فى حياته ، أو لعله خشى أن تصاحبه العلة فى الدار الأخرى ، فتقض مضجعه ، وتنغص عليه عيش الخلود ، ومن ثم ألزم جسده ذلك المكان حتى ينعم بنومة هانئة بين حنايا الرمال الدافئة ، ويمرح فى بحبوحه من أحلام عذاب .

وانتهينا الى المرسى ، على الشاطىء الآخر ، وشرعنا نصعد : هذا درج ساذج بديع التنسيق ، على جانبيه تصطف الأزاهير .

واعترضنا فى الطريق لافتة مكتوب فيها : « مقبرة نور السلام » .

وواصلنا الصعود ، والحضرة الخضراء تحيط بنا وسط تلك الرقعة الحلمية الفاحلة ، بما فيها من رمال محرقة ، وجنادل موحشة .

وتابعنا صعودنا ، وقد خلا الطريق من الرياحين ، وقبل أن نبلغ القمة مثلنا فى مكان يطل النيل .... هو مستشرف طبيعى سوته يد الانسان ، فتجلت أمامنا منه صفحة النيل تخترقها الجزر والخلجان والصخور وأشرعة القوارب ، ومن وراء ذلك صفوف النخيل وأبنية القادق ، مراح رفيع من طبيعة عطرية ، ومظاهر حضرية ، لوح مصور اختلط فيه المعقول واللامعقول ، والواقع وما فوق الواقع ، الوعى واللاوعى ، الرمز الخفى والحقيقة العارية ، وأنت حيال هذا اللوح المدع مبهور العين يقظة ، مملوء النفس من اعجاب .

وقاربنا المبنى العظيم ، وواجهتنا لافتة ثانية قرأنا فيها : « مقبرة الأعيان الثالث » . بناء مربع فى جانب منه قبة عالية ، وعلى عتبة الباب جلسنا احدثنا ، ودخلنا المزار خاشعين ، فكل ما هنالك يشعر بالنهاية والاكبار ، بما له من قدسية وبما فيه من روعة فى اسلامى عريق ، يزيده ترف حضارى بهيج .

الرمز الأصيل يتألق حواليك ، فى كل ما يقع عليه نظرك ، لكأنك داخل قوقعة بلورية بيضاء تسبح فيها الأضواء هادئة آمنة .

وتقف تحتماء القبر المطل بالقبة العليماء ذات الوشى الدقيق ، تحت البساطة البالغة كيف تنطوى فى حقيقتها على عظمة شامخة .

الخضوع والصفاء والسكون يحمل الى الزائر لهذا المكان اشراق الروح وطمأنينة النفس ، ولا غرو فنحن فى المكان الذى سمى بحق « نور السلام » .

يالانسان السرمدى فى كل مكان وزمان ... لقد حيره سر الوجود ، ومصير الجسد بعد انطلاق الروح ، وما عسى أن يكون أمره بعد حياته الدنيا طال عليها الأمد أو قصر ... .

ولم يستطع الاحقاب على تراكمها أن تحل اللغز ، ولا أن تهدى الحيارى وان هذه الحيرة أواء المصير المجهول هى التى أذكت الرغبة فى خلود الذكر وبقاء الأثر .... ما أشبه الأهرام وما اليها من معابد ومقابر خلال عديد من القرون ، بذلك الضريح الجديد ، ضريح

الزعيم الهندى الكبير ، فى ذلك الوادى الذى تهيم فيه ارواح الفراعين .

هبطنا الى زورقنا الرشيق « الغزال » ، وتلقانا الربان العلام ببسمة ترحاب كشفت عن اسنانه المسقة الناصعة .

الى اين يا « غزال » ؟

ـ الى جزيرة النباتات .

وانطلق الزورق على الماء ، واضواء الشمس تتوهج لامعة كانها صفائح من الفضة طافية على الموجات ، وجرينا فى طريقنا بجزيرة « الفنتين » ـ واسمها المصرى جزيرة اسوان ـ وهى حافلة بالآثار ، اذ كانت فى البدء موطن الأهلين ، ثم امتد منها العمران الى الضفة الأخرى ، حيث تقوم المدينة العتيدة ، وانها لجزيرة شاعرية تعمرها غابات النخيل ، وفى طرفها يقام اليوم فندق عظيم ، سوف يكون له شان فى تعمير الجزيرة ووصلها بالحياة الحضرية الرفيعة ، بعد ان عاشت عصورا مطاولة وهى قطعة من الماضى السحيق .

وانتهى بنا الزورق الى جزيرة النباتات ، فصعدنا اليها ، ولم نكد نخطو فيها حتى هلت علينا جوقة موسيقية شعبية قوامها اثنان من اهل الذن : ضارب دف ، وعازف ربابة . وانبعثت الأنغام تحيى الزوار ، وبدأنا جولة ممتعة فى الحديقة الساحرة ، وازنام الدف والربابة ترق خلفنا ، اذ تقتصها الرياحين والافنان.

درب طويل ممدود ، تتفرع منه دروب ، وعلى الجانبين حياض تربو فيها غرائب النبات .

وتدفع بخطاك وئيدا بعمرك الظل الوارف ، ويسرى فى الجو حولك انسام عبقة مفعمة بالعطور ، مختلفة الاريج ، وتنظر هنا وهنالك ، وعل سمعك يهب صوت الدليل وهو يعدد لك اصناف ما تنبت الأرض ، ويدكرلك اسماءها فى دقة عارف عليم ، انها حقا لمجموعة صنعت الطرائف والعجائب من ازهار واشجار تباينت مواطنها الأصيلة فى ارجاء الشرق والغرب ، منها نباتات ملساء رهيفة كانها اطفال رقاق يتضاحكون باصوات لطاف ، ومنها نباتات صلبة تعلو بهاماتها وتبسط سواعدها كانها احراس عتاة .

احضر فى ذهنك اسم نبات اى نبات واصطنع الرغبة فى ان تراه .. فانك لا تلبث حين تطلبه ان تجده على مقربة منك ... لكان فى اصبعك « خاتم سليمان » ، متى هجست فى نفسك حاجة ، عضت الخاتم لك ، لبيك ، واذا الحاجة نصب عينيك !

وتبلغ آخر المطاف ، وكانك فى طراز جديد من « سفينة نوح » ، سكانه من عالم النبات لا من عالم الحيوان ، ولكان الجزيرة طيف من اطياف الجنان فيها من كل ما تنبت الارض روحان .

وفى طرف الحديقة ملت معشوشب، يظلله من الهند شجر حور ، ومن « كوبا » نخيل ، وعلى مد البصر يترامى النيل ، وقد بسط ادرعا له ، على شواطئها حمال حمر هى موطن الحديد ، وهنالك على الضفة الأخرى تتنوأ « أسوان » عروسها كانه الهة من الاهات الفراعنة يحفها جلال .

وسألت دليل

أثمة جديد ؟

ـ لم يبق الا « كلبشة » ...

ـ وما « كلبشة » هذه ؟

ـ معبد عتيق شيد في العهد الاغريقي الروماني قبل الفين من السنين ، للاله «مندوريس» ابريس «وأورورييس».

واعتدل الدليل في وقفته ، وعقد ما بين حاجبيه ، واكتسب وجهه سمات الوقار العلمي ، وانطلق يتحدث كأنه محاضر يمتلئ متعة الدرس في أحد معاهد الآثار .

هذا المعبد اول أثر قديم ضخم يخضع لتجربة النقل من مكان الى مكان، تمهيدا لنقل المعبد العظيم في « ابي سمبل » ... لقد قصوا « كلبشة » في دقة واحكام قطعا بلغت خمسة عشر الف قطعة ، ونقلت القطع على مراكب الى مكان يبعد عن مكانها الأصلي خمسين كيلو مترا ... وليتوا في اجراء ذلك عامين ، برعاية « اليونسكو » وباشراف جماعة من مهندسي ألمانيا ، وأما النفقات فقد تكفلت بها « المانيا العربية » هدية منها « للجمهورية العربية المتحدة » .

وان هذا العمل يا سيدي ليعد من اكبر الأعمال الهندسية التي تخصص بها العلماء في عصرنا الراهن ، وهو ...

ـ حسبك أيها المحاضر الغزير المادة، وشكرا لك على ما قدمت من معلومات ... والآن أخبرني : كم تستغرق الرحلة الى « كلبشة » من الوقت ؟

فبسط ساعده بحركة مسرحية رائعة ، واستحضر ساعة يده الذهبية المتوهجة ، ثم قال

ستتأخر عن موعد الغداء حتما ...

ـ اذن ... فلنرجع ...

فلاحقني مقاطعا

الأثر بالغ الشأن ... لزام أن نزوره . وان فاتك في سبيله طعام يوم باكمله ..

فاطرقت هنيهة ، اقول مفكرا :

ولكل هذا مرهق ...

ثم رفعت رأسي . وتلفت حولي ، فلم أجد للدليل من شبح ...

وما هي الا ان اقلت علينا سيارة اجرة ، وهو فيها ، وصاح بي متهلل الوجه :

انت محظوظ ... عثرت لك على سيارة فاخرة ...

وقفز منها يفسح لنا ان نركب .

ومضت بنا السيارة تسابق الريح .

وتبدى لنا معبد « كلبشة » يتربع على هضبة عالية مشرفة من بعيد على « السد » ... انه يواجهه ، وكأنه يحييه ويسامره .

وصعدنا الى راس الهضبة ، فتجلى لنا المعبد كامل المعالم . ولكأنه منارة ترشد الزوار الى مكان السد ، أو لكأنه ديدبان الماضي يحرس منشآتنا العصرية الجديدة .

وطوفنا بأرجائه رقيا ، نقتحم ساحاته ، ونجوز بقاعاته ، ونمر بين صدده ، ونتطلع الى نقوش جدرانه ، مفتونين ببدائع الفن الفرعوني الباهر ...

معبد « كلبشة » كسائر المعابد العتيقة في ضخامته وروعة هندسته ، ولكنه يمتاز عنها بشيء ، هو انه انتقل بكل عناصره من موطن الى موطن .. انه اول مهاجر من معابدنا ، يبحث له مقاما جديدا بعد طول ثواء ، ليبحو من عمرة الماء ... وانها لخطوة موفقة نرجو ان تتلوها خطوات للمعابد الأثرية ، حين تلجئها الضرورة الى هجرة وارتحال .

أيها المعبد القديم في موطنه الحديث

ان كنت مفخرة الماضي عمارة وفنا ، فانت مفخرة الحاضر في قدرته على أن يبقاك دون أن يمسك أذى ، لتنعم بمقامك في جوار السد ، ولتكون ذا مزين لحضارتين عظيمتين حضارة الأمس المجيد ، وحضارة اليوم الجديد .